لماذا خلقت المرأة من ضلع أعوج ؟

علاقة الحضارة الإسلامية بالعلوم والمعارف

نستكمل اليوم درس الحصة الماضية عن الحضارة الإسلامية . نتيجة للتعاليم الإسلامية التي تحدثنا عنها الحصة الماضية ، اهتمَّ المسلمون كل الاهتمام بالعلوم والمعارف في كل البلاد التي فتحوها ، واهتموا بالترجمة اهتماماً فائقاً ، وأنفقوا على المشتغلين بها من الأموال ما جعلهم يؤدون الترجمة بعناية ودقة وحماس ، وكانت الترجمة ميسورة سهلة لكثرة المسلمين الذين يعرفون لغات هذه البلاد من العرب المسلمين ، او من أهل البلاد الذين دخلوا في الإسلام ، وتعلموا لغة القرآن الكريم فوق لغتهم الأصلية ، فكانت أداة الترجمة موفورة إلى حد بعيد في الدولة الإسلامية .

ولولا إخلاص المسلمين وحرصهم على الثقافة ونشرها بتوجيه من دينهم لظلَّت الثقافات القديمة دفينة ميتة ، كما نجد أن المسلمين برعوا في كثير من العلوم فقد تجلَّى استقلالهم الفكري وخيالهم ، وقوة إبداعهم فيما ابتكروه من العلوم مثل علم الفلك ، وعلم الكيمياء ، وعلم الطب والتشريح والجراحة والتداوي ، وما تبع ذلك من إجادتهم علم الفلك والأعداد الحسابية وغير ذلك من اختراع الساعة ونحوها من الآلات وتبعاً لتلك النهضة عنيت ديار الإسلام بدور الكتب حتى كان في القاهرة وحدها في أوائل القرن الرابع مكتبة على مائة الف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك ، وفي اسبانيا مكتبة الخلفاء بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكانت فهارسها أربعة وأربعين مجلداً ، وكان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة .

نكتفي بهذا القدر من الحصة ، ونبدأ الآن في إجابة سؤال إسراء لماذا خلقت المرأة من ضلع أعوج ؟

وما كاد الأستاذ نبيل يهم بالكلام حتى قالت إسراء : حضرتك كلَّفتني بالبحث في هذا الموضوع ، وأنا قد أعددت البحث وأريد أن أقرأه .

فقال الأستاذ نبيل وهو يبتسم : لا تتعجلي يا إسراء فقد كنت أمهد لك الطريق ثمَّ أطلب منك قراءة البحث .

– آسفة يا أستاذ .. تفضَّل أكمل حديث حضرتك .

هل تعاني المرأة اعوجاجاً في خَلْقِها ، وفي خُلُقِها ؟

– سبق أن ذكرنا أن هناك اختلافاً بين الرجل والمرأة على المستوى الفسيولوجي، والسيكولوجي ، وهذه أمور حسمها العلم ولم يعد أحد يناقش فيها ويقول إن المرأة مثل الرجل في القوة البدنية مثلاً أو العاطفة تجاه الأولاد ؛ فغريزة الأمومة من الغرائز الطبيعية وليس هناك غريزة أبوة ، وأنتن تعلمن ذلك جيداً ، وهذا لحكمة بالغة من الله تعالى لأن الأم هل التي تحمل وتلد وترضع وتربي الطفل في سنوات يحتاج الطفل فيها إلى رعاية كاملة لأنه لا يستطيع أن يقوم بشئون نفسه ولا يستطيع أن يبدر ما يحتاج إليه . ونستمع الآن لبحث إسراء .

– ورد في الصحيحين أن المرأة خُلِقَت من ضِلْعٍ أعوج ، فهل يعني هذا اعوجاجاً في خَلْقِها ، وفي خُلُقِها ، في مقابل استواء خَلْق الرجل وخُلُقه ؟

أولاً : المرأة مساوية للرجل في أصل الخِلْقَة يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

والنبي ﷺ يقول " إنَّما النِّساءُ شقائقُ الرِّجالِ " [صححه الألباني] .

ويقول ﷺ أيضاً : " إنَّ اللَّهَ أذهبَ عنكُم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخرَها بالآباءِ إنَّما هوَ مؤمنٌ تقيٌّ أوَ فاجرٌ شقيٌّ النَّاسُ كلُّهم بنو آدمَ وآدمُ خُلِقَ مِن ترابٍ "

[صحيح الترمذي] .

ومما تقدَّم يتبين جليّاً أن الرجل والمرأة متساويان في أنهما من أصل واحد وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر من الآخر ، وأنه لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالإيمان والعمل الصالح .

ولكن لا يعني هذا أنهما متماثلان تماماً فسيولوجياً ونفسّياً فلكل منهما صفاته الخاصة التي تميزه عن غيره والتي تتناسب مع طبيعة المهمة التي خلقه الله تعالى من أجلها فهما متكاملان وليسا متماثلين فالرجل يمتاز بالقوة البدنية وصلابة الطبع لتحمل مشاق العمل تعمير الأرض والجهاد في سبيل الله ، والمرأة تمتاز بالرقة والحنان والعاطفة ولين الطبع ليناسب مهمتها كأم وزوجة وأخت وابنة لذا أمر النبي ﷺ الرجال أن يرفقوا بالنساء كان رسولُ اللهِ ﷺ في سفرٍ، وكان معه غُلامٌ له أسْوَدُ يُقالُ له أنْجَشَةُ، يَحْدُو، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ " ويْحَكَ يا أنْجَشَةُ، روَيْدَكَ بالقَوارير " [صحيح البخاري] .

والقَوَارِيرُ: جمعُ قَارُورَةٍ، وهي وِعاءٌ من الزُّجاج تُحفَظُ فيه السّوائل سُمِّيت بذلك لاستِقرارِ الشرابِ فيها، وشبه النبي ﷺ النِّساءِ بالقَوَارِير لِضَعْفِ بِنْيَتِهِنَّ ورِقَّتِهِنَّ ولَطَافَتِهِنَّ ، ولأنهن عامل استقرار الأسرة .

قالت سارة لإسراء : أين الإجابة ؟ لم أسمع منك أو من الأستاذ إلا كلاماً عاماً.

قال الأستاذ : مع أن التمهيدات مهمة لكن كفى مقدمات يا إسراء وأجيبي عن سؤال سارة مباشرة .

المقصود من تشبيه المرأة بالضلع الأعوج

– النبي ﷺ شبَّه النساء بالضلع الأعوج الذي يحمي القلب محل الحب والعطف والحنان ؛ لأن المرأة هي نبع الحب والعطف والحنان ، والضلع في اللغة له معنيان : كل منحنى ويتسم دائماً بالضعف والرقة ، وعظمٌ من عظام قفص الصدر منْحنٍ وفيه عِرَضٌ .

وعلى ذلك إذا كان الرجل يحمي الأسرة من الخارج فإن المرأة تحمي الأسرة من الداخل ، وإذا كان الرجل كالجوارح التي تعمل لتوفير الطعام والشراب والسكن والحماية للجسم فإن المرأة تمثل سائر أعضاء الجسم الداخلية التي تمضغ الطعام وتهضمه وتنقيه من السموم وتحوِّله إلى دم محمّل بالأكسجين ثم تضخه إلى جميع خلايا الجسم، لتقوم هذه الخلايا بأخذ الأكسجين من الدّم واستغلاله في إنتاج غذائها، ثمّ تطرح غاز ثاني أكسيد الكربون وبعض الفضلات .

وبعد أن فهمنا هذه الحقائق تعالوا نقرأ الحديث الذي استشكل على سارة فهمه فإننا نجده متوافقاً تماماً مع ما ذكرته .

عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ " استوصُوا بالنساءِ ، فإنَّ المرأةَ خُلقتْ من ضِلعٍ ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلعِ أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمُه كسرتَه ، وإن تركتَه لم يزلْ أعوجَ ، فاستوصُوا بالنِّساءِ" [البخاري] .

شرح حديث الضلع الأعوج كله

والحديث يبدأ بالوصاية بالنساء ويختتم بها فهل يعقل أن يقول النبي ﷺ الحديث ذمّاً للمرأة ؟!!

وفي رواية أخرى عند مسلم عن أبي هريرة أيضاً " مَن كانَ يؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخرِ، فإذا شَهِدَ أمرًا فليتَكلَّم بخيرٍ أو ليسْكت، واستوصوا بالنِّساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلِقت من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلعِ أعلاهُ، إن ذَهبتَ تقيمُهُ كسرتَهُ، وإن ترَكتَهُ لم يزل أعوَج، استوصوا بالنِّساءِ خيرًا " [صحيح مسلم] .

وتبدأ هذه الرواية أن جعل النبي ﷺ من سمات المؤمن بالله واليوم الآخر أنه إذا اطلع إلى أمر فليتكلم فيه بخير أو يسكت إشارة من النبي ﷺ إلى وجوب إحسان الكلام في الدين عموماً وعن النساء خصوصاً وأن من اتَّهم الدين وأثار حوله الشبهات بسبب فهمه الخاطئ فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر ثمَّ ثنَّي النبي ﷺ بعد ذلك بوجوب الإحسان إلى النساء قولاً وفعلاً وألا يسيء أحد إليهن أو يقلل من شأنهن ويختتم الحديث بالتذكير مرة أخرى بتذكير الرجال بالإحسان إلى النساء فهل من قال هذا يقصد ذمَّ النساء بهذا الحديث ؟!! بالقطع لا .. وأن تشبيه النبي ﷺ النساء بالضلع الأعوج قد جاء في سياق الوصية بهن لا في بيان كيفية خلقهن. مما يستبعد معه أن يكون موضوع الحديث هو المسألة العضوية أو التشريحية بقدر ما هو حديث عن سيكولوجية المرأة، وتوجيه نبوي كريم إلى ضرورة الرفق في التعامل معها وتجنب الشدة حيالها.

الضلع الأعوج وعمل المرأة

وتعالوا نتعرَّف ماذا قال من يتكلَّم بالخير وعمل بتوصية النبي ﷺ بالنساء خيراً عن مفهوم الضلع الأعوج الذي خلق الله منه النساء " النبي ﷺ حين شبَّه النساء بالضلع الأعوج فإنَّه لا يذمُّ النساء بهذا، وإنَّما يُحدِّد طبائع النساء، وما اختصهنَّ الله به مِن تفوُّق العواطف على العقل، على العكس من الرَّجل الذي يتفوَّق فيه العقلُ على العواطف، فما زاد في المرأة نَقُصَ من الرجل، وما زاد في الرَّجل نَقُصَ من المرأة .

ليس العوجُ في الحديث مرادًا به الفساد في طبيعة المرأة ؛ لأنَّ عوجَها هذا هو صلاحُها لأداء مهمتها، فالمرأة من وظائفها أن تتعاملَ مع الأطفال، والأطفال في حاجةٍ إلى الحنان والانعطاف الشديد، وليسوا في حاجةٍ إلى التعامُل معهم تعاملاً عقليًّا، أو يغلب عليه العقل، فالرجل يرى في بكاء الطفل إزعاجًا وإفسادًا لنومه وهو في ذلك يستخدم منطق العقل، أما المرأة الأم فتذهب إلى الطفل تهدهده وتخفف ألمه، فالعاطفة الفيّاضة هي لغة الحوار بين الأم والطفل .

فالطفل في حاجةٍ إلى تعامُلٍ تغلب فيه العاطفة على العقل، حتى يمكنَ أن يكونَ احتمالُ القَذَر ومشقات السَّهْر والبكاء، والبحث عن راحة الطِّفل بين متاعبه، التي لا يُعرَف لها سببٌ أحيانًا.

لذلك كان أعوجُ ما في الضِّلَع أعلاه، وأعوج ما في المرأة أعلاها؛ يعني: انعطاف صدرِها على طفلِها، وغلبة عاطفتها على عقلِها.

من هنا أصبح العوجُ صفةَ مدحٍ، وليس صفةَ ذمٍّ للمرأة؛ إذ إنَّ هذا العوج في حقيقته هو استقامةُ المرأة لمهمَّتها .

قال الأستاذ نبيل : نشكر إسراء على بحثها الدقيق الذي يتضح منه مدى الجهد الذي بذلته فيه . فالمقصودُ بالضِّلع الأعوج إذن المعنى المجازي، وليس اللفظي، مثل قوله تعالى ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧] إي أن الإنسان من طبعه الاستعجال في الأمور، وغاية الحديث هو الأمر بمعاملة النساء بالحسنى والنهي عن معاملتهن بالشدة.

ولو تأمَّلْنا عاطفةَ المرأة، وحنانها على أطفالها، وأردْنا أن نرسمَ في أذهاننا صورةَ المرأة الأمِّ مع أطفالها، لرسمْنا امرأةً منحنية عليهم، مائلة برأسها فوقَهم، فلا تجتمعُ استقامةُ الجذع مع حَدَب المرأة وعطفِها، فالأمُّ إما تُرضِع طفلها أو تحضنه وتحميه، أو تُنظِّفه وتلبسه، وفي جميع هذه الحالات لا تكون إلاَّ منحنية .

فاعوجاجُ الضِّلَع إذن فيه حمايةٌ لقلْب الرجل، فكأنَّما المرأة لتحمي الرجل، وتوفِّر له الاستقرارَ والطُّمأنينة والرِّضا، الأمور التي تَكفُل لقلْب الرجل عدم الاضطراب، ومِن ثَمَّ السلامة والعافية .

ورحَّبتِ النِّساءُ والأمهات بهذا المفهوم واعتبرنَه وصفًا لطبيعتهنَّ، وتوصيةً للرِّجال بالإحسان إليهنَّ والرِّفق بهنَّ، ولم يعبأنَ بالشبهات التي أُثيرتْ حولَ الحديث، واعتبرنَ ذلك أشواكًا يزرعها أعداءُ الإسلام في طريق مَن يطلب السعادةَ الأبدية في الدنيا والآخرة.

والخلاصة أن المقصود بالحديث بيان الاختلاف في طبيعة النساء عن طبيعة الرجال والتوصية بالنساء خيراً وليس إنقاصًا من مقام المرأة، وإلا ما جاء الحديث النبوي: " الزَمْها فإنَّ الجنةَ تَحْتَ أقَدامِها " [صححه الألباني] وحديث أنها الأَوْلَى بحسن الصحبة ثلاث مرات قبل الأب " جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ ، من أحقُّ الناسِ بحُسنِ صَحابتي؟ قال: أُمُّك. قال: ثم من؟ قال: ثم أُمُّك. قال: ثم من؟ قال: ثم أُمُّك. قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك." [متفق عليه]ثم الحديث القائل: " خيرُكم خيرُكم لأهلِه وأنا خيرُكم لأهلي " [صحيح ابن حبان] والمقصود بالأهل هنا الزوجة، ثم الوصية بهن في هذا الحديث وغيره كثير.

قالت سارة : وماذا عن قول النبي النساء ناقصات عقل ودين ؟

– لقد انتهت الحصة من خمس دقائق وأكيد أستاذ الحصة واقف أمام الباب أما إجابة هذا السؤال فيمكن أن تطرحيه على د. حسن مرعي الأسبوع القادم.

***